المحاضرة الثانية

دواعي الخطابة وعوامل تطورها

د. تومان غازي الخفاجي

مدخل:

من المتّفق عليه أنّ ظهور الإسلام يُعدُّ أهمَّ حدثٍ في تاريخِ العربِ الطويل، لِمَا لهُ من تأثير بالغ في جميع مناحي الحياة، نتيجةَ ما حمله من مفاهيم جديدة جعلتِ العربَ يُغيّرونَ نظرتهم للحياة وللكون، إذ وحدّهم الإسلام دينيا وسياسيا وأدخل التطوّر على مختلف ميادينِ حياتهم السياسية والروحية والتشريعية والاجتماعية والاقتصادية والأدبية وحتى العقلية.

ومن الناحية الأدبية تأثر الشعر والنثر الفني بطبيعة الحياة الجديدة ونظامِها، وممّا تجدر الإشارةُ إليه أنّ مظاهر التطوّر كانت واضحة أكثر في النثرِ منها عن الشعر، بسبب رسوخ التقاليد الجمالية الشعرية في الذوق العربي. ولعلّ تطور الخطابة فاقَ تطوّر غيرِها من فنون النثر. وسنبيّن فيما يأتي دواعي الخطابة وأسباب تطورها.

أولا: دواعي الخطابة الإسلامية:

هناك عدّة أسباب استدعت انتشار فنِ الخطابة يمكن إجمالها فيما يأتي[١]:

١- اتخاذ الخطابة أداةً للدعوة الإسلامية قبل الهجرة وبعدها.

٢- كانت الخطابة فرضا من الفروض الواجب اتباعها في خُطب الجمعة والأعياد.

٣- كانت الخطابةُ وسيلةً مُثلى للاتصال بالناس الذين استمالتهم الدين الجديد للتأثير في مواقفهم وتغييرها من السلب إلى الإيجاب.

٤- كثرة الأحداث التي تبعث على القول وتدعو إلى الخطابة، ومن ذلك مغازي الرسول الأعظم(ص)، وحركة الردّة بعد وفاته(ص)، وفتنة مقتل عثمان، واختلاف المسلمين بعد مقتله؛ لأنّ وحدة المسلمين لم تدم طويلا بعد وفاة الرسول(ص).

٥- الحاجة إلى بيان الأحكام الشرعية، فقد كان النبي(ص) يعتمد على الخطابة من أجل أن يُبيّن للداخلين في الإسلام أحكامه، ويفصّل لهم ما أجمله القرآن الكريم، ويوضّح لهم ما أشكلَ عليهم فهمهُ.

٦- نظام الشورى السياسي الذي ساد في صدر الإسلام كان يقرّ بالنقاش والحوار بين

---

[١] ظ: الخطابة، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، محمد أبو زهرة: ٤١-٤٥.

الخليفة والمسلمين، وقبله بينَ الرسول(ص) والمسلمين.

٧- الجهاد في سبيل الله دعا إلى ازدهار الخطابة، إذ كانت الذخرَ الأولَ والسلاحَ الحادَّ الذي يحتفظ به القائد من أجل شحذِ همم مقاتليه وحثّهم على الصبر والمواجهة والشهادة.

ثانيا: أهم عوامل (اسباب) تطوّر الخطابة الإسلامية:

لقد تضافرت مجموعة من العوامل للرقي بفن الخطابة في العصر الإسلامي أهمها ما يأتي:

١- **نزول القرآن الكريم:** جاء القرآن الكريم ببلاغة لا نظير لها فأعجزَ البلغاء وتحداهم أن يـــأتوا بسورةٍ من مثله فعجزوا المنكرون عن ذلك، أما المسلمون فقد استفادوا منه وتأثروا به تأثيرا كبيرا، وقد استفادت الخطابة منه كثيرا من ناحيتين:

أولاهما: تتمثل في اكتساب اللغة السهلة الفصيحة سعة على مستوى المعنى والألفاظ، ومن ثَمَّ الوصول إلى أسلوب (السهل الممتنع) للتعبير عن المعنى بأبسط الطرائق وأعمقها تأثيرا في النفوس.

ثانيتهما: أخذ الخطاب ينتهجون نهج القرآن الكريم في الاستدلال وإقامة الحجج والبراهين لمخاطبة العقل أكثر من مخاطبة العاطفة، لتثبيت الفكر الإسلامي الجديد، فقد اجتمع في أدلة القرآن الكريم ما لا يمكن أن يجتمعَ في سواها من استقامةٍ في المعنى الذي يخاطب الفطرة الإنسانية، وتلائم المقدمات مع النتائج، المقدمة بأجمل الألفاظ وجودة الأسلوب ومخاطبة الإحساس وإثارة الرغبة.

٢- **الحديث النبوي الشريف:** كلام النبي(ص) كان من حيث جماله وعمق مضامينه الإنسانية يلي القرآن الكريم بالمنزلة الجليلة والتقدير، وقد اجتمعت في الحديث فصاحة اللفظ وجودة المعنى وحسنُ الأداء، وقد بلغَ الحديث الشريف من البلاغة الذروة التي لا نجدها في سواه من كلام البشر، لهذا كان للحديث أثر بالغ في الخطابة من جانبين:

أولهما: من الجانب اللغوي، فقد أضاف الحديث ثروة إلى اللغة بتجديد المعاني والأساليب التي ابتكرها الرسول الكريم(ص)، إذ سهّل الحديث ألفاظ اللغة لما فيه من قرب من لغة القرآن الكريم من حيث سهولة الألفاظ وقرب معانيها إلى الأذهان، وترك الألفاظ الوعرة والحوشية التي سادت في العصر الجاهلي.

ثانيهما: اقتباس الخطباء من خطب النبي تيمنّا بقوله وكسبا لأسماع المتلقين، وتأكيدا على الموضوعات المهمة التي طرقها النبي(ص) لما فيها من توجيه للسلوك القويم وترسيخ العقائد

الأساسية التي توحّد المجتمع الإسلامي اعتمادا على مبادئ الدين وأخلاقياته وترسيخ المحبة بين المسلمين ونشر مبادئ التعاون وترك الإثم والعدوان.

أنموذج من خطب الرسول(ص) أول خطبة جمعة في الإسلام:

الحمدُ للهِ أحمدُه وأستعينُه وأستغفرُه و أستهديه، وأومنُ بهِ ولا أكفرهُ وأعادي من يَكفرُه، وأشهدُ أنَّ لا إلهَ إلا الله وحدَهُ لا شريك له وأنّ محمدا عبدُه ورسولُه، ارسله بالهدى والنورِ والموعظةِ على فترةٍ من الرسلِ، وقلةٍ من العلم، وضلالةٍ من الناس، وانقطاعٍ من الزمان، ودنوٍ من الساعة، وقربٍ من الأجل.

مَن يطعِ اللهَ ورسولَهُ فقد رَشُد، ومن يعصِهما فقد غوى وفرِطَ وضلَّ ضلالا بعيدا، وأوصيكم بتقوى الله، فإنّه خيرُ ما أوصى به المسلمُ المسلمَ أن يحضَّهُ على الآخرة، وأن يأمرَهُ بتقوى الله، فاحذروا ما حذركم اللهُ من نفسهِ، ولا أفضلَ من ذلكَ نصيحةً، ولا أفضلَ من ذلك ذكرا، وإنّ تقوى الله لمن عَمِلَ به على وَجَلٍ ومخافةٍ من ربّهِ عونُ صدقٍ على ما تبغونَ من أمرِ الآخرة، ومن يصلحْ الذي بينه وبين اللهِ من أمره في السرِ والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجَهَ اللهِ يكن له ذكرا في عاجلِ أمره وذخرا فيما بعد الموت حين يفتقرُ المرءُ إلى ما قدّم، وما كان من سوى ذلك يودّ لو أنّ بينه وبينه أمدا بعيدا.

ويحذّركم اللهُ نفسُه واللهُ رؤوف بالعباد، والذي صدق قوله وأنجز وعده لا خُلفَ لذلك، فعنه يقول عز وجل: (مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) سورة ق:٢٩، فاتقوا اللهَ في عاجلِ أمركم وآجلِهِ في السرِّ والعلانية، فإنّه مَنْ يتقِ اللهَ يكفّرْ عنُه سيئاتِهِ ويُعظّمْ لهُ أجرا، ومن يتقِ اللهَ فقدَ فازَ فوزًا عظيما. وإنّ تقوى اللهِ يُبيّضُ الوجوهَ ويرفعُ الدرجة، خذوا بحظكم ولا تفرِّطوا في جنب الله، قد علّمكم اللهُ كتابَهُ ونهجَ لكم سبيلَهُ ليعلمَ الذين صدقوا ويعلمَ الكاذبين. فأحسنوا كما أحسن الله إليكم وعادوا أعداءه وجاهدوا في الله حقَّ جهادِه، هو اجتباكم وسمّاكم المسلمين ليهلكَ من هلكَ عن بيّنةٍ ويُحيىَ من حييَ عن بيّنة. ولا حول ولا قوة إلا بالله، فأكثروا ذكر الله واعملوا لما بعدَ اليوم، فإنّه من يُصلحْ ما بينه وبين الله يكفِهِ اللهُ ما بينهُ وبينَ الناس، ذلك أنّ اللهَ يقضي على الناسِ ولا يقضونَ عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه، اللهُ أكبر، ولا قوة إلا بالله العظيم).